بسم الله الرحمن الرحيم

علم الكلام: كتاب بداية المعرفة

خلاصة الدرس الثالث عشر

صفات الصانع

الصفات السلبية

القسم الثاني

التوحيد في العبادة، وهي من أبرز السمات التي تميَّز بها المُوحِّد عن المشرك، فكل من يَعبُدُ غير الله أو يعبُدُ شيئاً آخر فهو مشرك. ولذلك ركز الإسلام عليه وجعله شعاراً للمسلمين يرددونه كل يوم مرّات عديدة في صلواتهم وهو قولهم: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. سورة الفاتحة الاية ٥.

فإذا كان التوحيد في العبادة بهذه المنزلة من الأهمية، فمن الضروري جداً معرفة حقيقةِ العبادةِ وحدودها التي تُصَحِّحُ إطلاق المُوحِّدِ والمشرك، وليعلم من ذلك وجه انحصارها بالله سبحانه وتعالى.

ما هي العبادة؟

هو اعتقاد الخاضع أن المخضوع له هو خالقه وربه، أي هو المالك لشؤون العابد كلها في دينه ودنياه وآخرته.

مجرد التعظيم والتبرك والتوسل ليس عبادة:

ليس كل خضوع عبادة، بل لا بد لصدق العبادة أن يقترن ذلك الخضوع اللفظي أو العملي بعقيدة قلبية لدى الخاضع، وهي خالقيةُ ومالكيةُ وربوبيةُ من يَخضَعُ له، وغناه و استقلاله التام في خلقه وربوبيته للعالم، وبدون ذلك يكون ذلك اللفظ أو العمل تعظيماً و احتراماً وتقديراً للمخضوع له لا أزيد .

وفي القرآن الكريم نجد عدة مصاديق:

منها: سجود الملائكة لآدم عليه السلام، فهذا السجود خضوع عمليٌّ تامٌّ أمام موجود سوى الله تعالى، ومع ذلك لم يكن شركاً بالله، لأنه لم يكن ناشئاً من الاعتقاد بخالقية آدم لهم وربوبيته.

ومنها: سجود إخوة يوسف ليوسف عليه السلام.

وتوجد أُمور عرفية كثيرة من هذه المظاهر، التي لا يرى الناس فيها شيئاً من العبادة، كتقبيل يد العالم احتراماً، وتقبيل المصحف تبركاً، وتقبيل ضرائح الأنبياء وأوصيائهم تبجيلاً وتعظيماً.

فالكلمة الحاسمة في هذا الموضوع من وجهة التوحيد والشرك، هي عقيدة المؤدي لهذه الأفعال، إن كانت ناشئة عن اعتقاده بخالقية وربوبية هذه الأشياء واستقلالها في فعلها إستقلالاً تاماً، كانت شركاً، وإلّا فلا.

والصفة السلبية الثانية لله: **أنه ليس بجسم.**

فالجسم ما له طولٌ وعرضٌ ويشغل حيزاً من الفراغ، ويقع في المكان والزمان، فإذا كان في مكانٍ ما، لم يكن في الأمكنة الأُخرىٰ، وإذا كان في زمان ما لم يكن في الأزمنة الأُخرىٰ.

ويقابله العرض، وهو الحالُّ في الجسم ولا وجود له بدونه. فالله سبحانه وتعالى ليس بجسمٍ، ولا عرض، بالدليل العقلي والنقلي.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ ، وَ لاَ حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَ لاَ إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَ لاَ حَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَ تَوَهَّمَهُ ... المصدر: نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦.

ومما يدعو للأسف أنه يظهر من أهل الحديث ما يلزم منه القول بجسمية الباري تعالىٰ -التي صرح بها بعض المنتسبين للإسلام كالكرامية- حيث أثبتوا له تعالى ما جاء في ظواهر الكتاب والسنة; من اليد والساق والعين والوجه والجنب والكرسي والجلوس والنزول .... على ظهورها الحرفي ومعناها الإفرادي المتبادر منها.

قال تعالى:وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ سورة القيامة.

فقد دلّت الدلائل العقلية على امتناع الجسمية ولواحقها عليه تعالى، وجب هنا تأويل (أي النظر الى المعنى الأعم والمقصود، أي المراد النظر في المفاد الجملي للآيات والروايات، وهو المسلك الصحيح في باب الصفات الخبرية (الدلائل النقلية الدالة على خلاف ذلك; لأن الأمر لا يخلو من أحد أربعة:

١. العمل بالعقل والنقل(المخالف له) معاً.
٢. طرحهما معاً.
٣. طرح العقل والأخذ بالنقل.
٤. الأخذ بما يرشد إليه العقل وتأويل النقل ، إن كان قابلاً له ، وإلّا طرحه .

والطرق الثلاثة الأُولى مستحيله.

أما الأول، فلاستلزامه اجتماع النقيضين.

وأما الثاني، فلاستلزامه ارتفاعهما.

وأما الثالث، فلأن لازم اطّراح العقل، اطّراح النقل أيضاً; لأن العقل أصله، ولولاه لما ثبتت حجية شيء من النقول الشرعية. فلم يبق إلّا سلوك الطريق الرابع، وهو المطلوب.

الله تعالى غير متحد بغيره.

ذهبت بعض الطوائف إلى أنه تعالى متّحد بغيره. فقد قالت النصارى: إنه تعالى اتحد بالمسيح عليه السلام.

وقالت النصيرية: إنه اتحد بعلي عليه السلام. وغير ذلك من الآراء وهي كلها باطلة، من جهتين:

الجهة الأُولى: إن هذا الاتحاد -على فرض إمكانه- من صفات الأجسام. ويمكن تقريبه باتّحاد ذرة أوكسجين مع ذرتي هيدروجن لتشكل معاً جزيء ماءٍ. والله تعالى منزّه عن الجسمية، فلا يتّصف بها.

الله تعالى غير متحد بغيره.

الجهة الثانية: إن المعنى المتصور من حقيقة الاتحاد، هو صيرورة شيئين موجودين متغايرين، شيئاً واحداً، مع بقاء كل منهما. وهذه الحقيقة مستحيلة بالذات. وذلك لأن المتَّحدين -بعد اتحادهما- إن بقيا موجودين بخصائصهما وميزاتهما، فلا اتحاد، لأنهما حينذاك اثنان لا واحد .

وإن عُدما معاً، أو زالت خصائصهما فلا اتحاد أيضاً، بل تكون موجود ثالث.

وإن عُدم أحدهما وبقي الأخر، فلا اتحاد أيضاً; لأن المعدوم لا يتَّحد بالموجود.

هذا، وإن كان القائلون بالاتحاد يريدون معنىً آخرَ مغايراً لما تقدم، فلا بد لهم من تصويره، حتى نناقشه ونذعن به إن وافق العقل، أو نردَّه إن خالفه، ولا يمكن بحالٍ التعبد بمفاهيم مبهمة أو مستحيلة.

لمشاهدة الدروس يمكنكم مراجعة الموقع الالكتروني:
حوزة الإمام الصادق عليه السلام الافتراضيةلتعليم الدروس الحوزوية (imamsadiq.tv)